مقدمات في علم التفسير

مباحث علمية ونماذج تطبيقية

مقدمة:

الحمد لله الذي أنزل على عبده القرآن، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، والصلاة والسلام على من أتاه الله الحكمة وحسن البيان وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه في التلاوة والعلم والتزكية وجمع بين العلم والعمل والإيمان إلى يوم العرض والميزان. أما بعد:

فإن علم التفسير علم جامع لكثير من العلوم، لأنه متعلق بالقرآن الذي جمع علم الأولين والآخرين، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (**من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن**). وهو من أشرف العلوم التي ينبغي أن تصرف فيها الجهود والطاقات، وتفنى دونها الأعمار والأعصار، وتتعب من أجلها الأفكار والأنظار، تأصيلا وتنظيرا وتأويلا وتطبيقا. قال الإمام ابن جرير الطبري: (إن أحق ما صرفت إلى علمه العناية وبلغت في معرفته الغاية ما كان لله في العلم به رضا وللعالم به إلى سبيل الرشد مدى وإن اجمع ذلك لباغيه كتاب الله الذي لا ريب فيه وتزيله الذي لا مرية فيه الفائز بجزيل الذخر وسني الأجر تاليه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تتزيل من حكيم حميد)[1]. ولله ذر الرَّاغب الأصفهاني إذ يقول: «أشرف صناعة يتعاطاها الإنسان تفسير القرآن وتأويله، وذلك أن الصِّناعات الحقيقيَّة إنما تشرف بأحد ثلاثة أشياء، إما بشرف موضوعاتها... وإمَّا بشرف صورها... وإمَّا بشرف أغراضها وكمالها... فإذا ثبت ذلك فصناعة التَّفسير قد حصل لها الشَّرف من الجهات الثلاث، وهو أن موضوع المفسّر كلام الله تعالى:

---

[1]– تفسير ابن جرير الطبري: 5/1.

الذي هو ينبوع كل حكمة، ومعدن كل فضيلة، وصورة فعله: إظهار خفيات ما أودعه متزله من أسراره ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب، وغرضه: التَّمسُّك بالعروة الوثقى الّتي لا انفصام لها، والوصول إلى السَّعادة الحقيقيِّة الّتي لا فناء لها، ولهذا عَظُمَ محله بقوله: ﴿وَمَنْ يُّوتَ أَلْحِكْمَةَ فَقَدُ اُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾[1]، قيل: هو تفسير القرآن»[2]. وذكر السُّيوطي نقلاً عن الأصفهاني نفسه أن التَّفسير حاز الشرف من جهة شدة الحاجة إليه معللاً ذلك بقوله: (وأمَّا من جهة شدَّة الحاجة؛ فلأن كل كمال ديني أو دنيوي، عاجلي أو آجلي مفتقر إلى العلوم الشرعية والمعارف الدِّينيَّة، وهي متوقفة على العلم بكتاب الله تعالى)[3]. ذلك أن (أم العلوم الشَّرعيَّة ومجمع الأحكام الدِّينيَّة: كتاب الله المودع نصوص الأحكام، وبيان الحلال والحرام والمواعظ النَّافعة، والعبر الشَّافية والحجج البالغة، والعلم به أشرف العلوم وأعزها وأجلّها وأميزها؛ لأنّ شرف العلوم بشرف المعلوم)[4].

ولذلك لم يكن غريبا أن يكون التفسير أول العلوم الإسلامية ظهورا. فقد ظهر الخوض فيه في عصر النبي ﷺ، حيث كان بعض أصحابه يسألونه ﷺ عن بعض معاني القرآن، كما صنع عمر رضي الله عنه حين سأله عن الكلالة.

ثم اشتهر فيه بعد ذلك من الصحابة علي وابن عباس وهما أكثر الصحابة قولا في التفسير، وزيد بن ثابت وأبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم، وكثر الحديث فيه، حين دخل في الإسلام من لم يكن

---

[1]- سورة البقرة: 269.

[2]- مقدمة التفسير للراغب الأصفهاني المنشورة مع تنـزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار، ص: 422، الاتقان في علوم القرآن، 173/4.

[3]- الإتقان في علوم القرآن: 512/2.

[4]- الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي، 47/1.

عربي السجية، فلزم التصدي لبيان معاني القرآن لهم. ثم شاع عن التابعين اهتمامهم بالتفسير، وأشهرهم في ذلك مجاهد بن جبر، وعكرمة، وعطاء...

ويحسن بنا أن نقدم بين يدي الحديث في علم التفسير مقدمات علمية ومنهجية تكون عونا للناظر المبتدئ في هذا العلم، استيعابا وتحليلا وتعليلا وتركيبا. وهي بمثابة تنبيهات بين نصائح وإفادات وتحذيرات، علها تكون لطالب العلم دليلا ومرشدا في مطالعة كتب التّفسير وجسن الاستفادة منها، وتغنيه عن تكرار كثير مما لا فائدة في تحصيله. وهي على النحو الآتي:

المقدمة الأولى: إن كتب التفسير كثيرة جدا ومتنوعة، والإحاطة بها عدا فضلاً عن مطالعتها متعذرة. ولو قيل للعارف بعلم التَّفسير وتاريخه: إلى كم يصل عَدَدُهَا فإنه لا يكون مبالغًا إذا قال: تزيد عن الألف. وهي بهذا العدد الهائل ووحدة موضوعها لا يخلو كتاب منها من فوائد ودرر، وما يوجد في تفسير قد لا يوجد في آخر. وهي في عمومها جهد بشري تعكس مدى نضج أو ضعف الحركة العلمية المرتبطة بالتفسير عبر العصور. فهي – على ما هي عليه– عبارة عن محيطات لا تدرك نهاياتها. وهي مختلفة متفاوتة على اختلاف الزمان، والمذاهب الفكرية، والفقهية، والتوسع والاختصار، والتخصص والشمول، والتفاوت العلمي بين المفسرين، واختلاف أحوال المفسر الواحد بين الشعور بالأمن والاطمئنان والكرامة أيام عز دولته وعظمتها وعدلها، وبين اضطرابه وتوجسه أيام ضعف دولته وتراجعها وانكماشها. فعمل المفسرين في العصور الأولى لافتتاح الأندلس، مثلا، يختلف عن تفسيرهم أيام انسحاب الدولة الإسلامية من شبه جزيرة الأندلس... ولذلك جاءت أعمال المفسرين متنوعة متعددة مختلفة، مع العلم أن الوحي لا يقبل خرافة ولا ضعفا ولا اجتهادا غريبا. يقول الشيخ رشيد رضا: كان من سوء حظ المسلمين أن أكثر ما كتب في التفسير يشغل قارئه عن المقاصد العالية والهداية السامية. فمنها ما يشغله عن القرآن بمباحث الإعراب وقواعد النحو ونكت المعاني ومصطلحات البيان. ومنها

ما يصرفه عنه بجدل المتكلمين وتخريجات الأصوليين، واستنباطات الفقهاء المقلدين، وتأويلات المتصوفين، وتعصب الفرق والمذاهب بعضها على بعض، ومنها ما يلفته عنه كثرة الروايات، وما مزجت به من خرافات إسرائيليات. وقد زاد الفخر الرازي صارفا آخر عن القرآن وهو ما يورده بعض المفسرين من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في الملة، على ما كانت عليه في عهده كالهيئة الفلكية اليونانية وغيرها، وقلده بعض المعاصرين بإيراد مثل ذلك من علوم العصر وفنونه الكثيرة الواسعة)[1].

المقدمة الثانية: كتب التفسير جمعت الغث والسمين، والحق والباطل، والخطأ والصواب، والمقبول والمرفوض، ولهذا قالوا: «ثلاثة كتب ليس لها أصول: التفسير والملاحم والمغازي»[2]، وإن كان من وجوه تفسير هذه المقولة أن المراد بذلك كتب مخصوصة في هذه المعاني الثلاثة غير معتمد عليها، ولا موثوق بصحتها لسوء أحوال مصنفيها، وعدم عدالة ناقليها، وزيادات القصاص فيها، كما قرره الخطيب البغدادي في «الجامع»، إلا أنه وقع التساهل في التفسير وأطلقت فيه المرويات والآراء ما لم يقع في سائر العلوم الأخرى كالحديث مثلا. ولذلك قرر العلماء القاعدة التفسيرية المشهورة: **التفسير بالأثر إنما يكون بالنقل الصحيح**. وهي قاعدة مهمة ينبغي لطالب العلم أن يعض عليها بالنواجد. ذلك أن (الانفصال المبكر بين تربية القرآن والأنظمة الاجتماعية والسياسية، والقصور والانكماش في الفقه السياسي، والتوسع المفرط في فقه العبادات، والخطأ في فهم الزهد والسلوك والتصوف، والميل إلى الجانب الأسطوري في بيان قصص القرآن عند البعض، والغفلة عن المقاصد التربوية الكبرى، والنظرة التجزيئية الموضعية للآية والجملة المفسرة دون النظرة الموضوعية

---

[1]– نقلا عن: المفسرون: مدارسهم ومناهجهم. د. فضل حسن عباس. 99. دار النفائس. ط 1. 2007.. ص 66.

[2]– لسان الميزان، لابن حجر العسقلاني: 12/1.

للمعاني الرابطة بين الآيات حيثما وردت، وتسلل بعض الأفكار المنحرفة إلى مجال التفسير، والاستبداد السياسي الذي حاصر النبغاء من العلماء والأدباء والمفكرين والمؤرخين والمبدعين، وتغيير مفاهيم المصطلحات على مدى الزمان، وما خلفته أحاديث الفتن الموضوعة، والتأويلات البعيدة والباطلة والمتشعبة للمنقولات، وانشغال الناس عن القرآن بالإفراط في رواية الحديث في الأزمنة الأولى، وفي نقل الآثار والسير والآداب نظما ونثرا، وأخبار النسب والحروب دون تحر كاف وتمحيص ونقد ممنهج عند الكثير. كل ذلك وغيره أفضى بعملية تفسير القرآن على مر السنين أن جاءت في معظمها كسوق مكتظة بالبضائع الحديثة والمستعملة، الجيدة والرديئة، الكثيرة والقليلة، المرغوب فيها والمتروكة، المتخصصة والشاملة، المصنفة فقهيا أو عقديا أو علميا أو فنيا أو حركيا، أو الجامعة من كل فن طرفا ونبذا، الصحيحة مضمونا والمتوسطة والضعيفة، الواضحة المبسطة والمعماة الملغزة أحيانا، مما جعل الاستفادة التربوية منها تتعسر اليوم على أشباه العلماء، أما العامة فليسوا منها في العير ولا في النفير)[1].

ولعل مما يؤكد هذه الحقيقة قول الطوسي في مقدمة تفسيره: (إن من المفسرين من حمدت طرائقه، ومدحت مذاهبه، كابن عباس، والحسن، وقتادة، ومجاهد وغيرهم. ومنهم من ذمت مذاهبه، كأبي صالح، والسدي والكلبي وغيرهم. هذا في الطبقة الأولى. وأما المتأخرون فكل واحد منهم نصر مذهبه، وتأول على ما يطابق أصله، ولا يجوز لأحد أن يقلد أحدا منهم، بل ينبغي أن يرجع إلى الأدلة الصحيحة: إما العقلية، أو الشرعية، من إجماع عليه، أو نقل متواتر به، عمن يجب اتباع قوله، ولا يقبل في ذلك خبر واحد، خاصة إذا كان مما طريقه العلم، ومتى كان التأويل يحتاج إلى شاهد من اللغة، فلا يقبل من الشاهد إلا ما كان معلوما بين أهل اللغة، شائعا بينهم. وأما طريقة الآحاد من الروايات الشاردة، والألفاظ النادرة فانه لا يقطع

[1]- مشكلات المسلمين. ... .. 52-53.

بذلك، ولا يجعل شاهدا على كتاب الله وينبغي أن يتوقف فيه ويذكر ما يحتمله، ولا يقطع على المراد منه بعينه، فانه متى قطع بالمراد كان مخطئا، وان أصاب الحق، كما روي عن النبي (ﷺ) لأنه قال تخمينا وحدسا و لم يصدر ذلك عن حجة قاطعة وذلك باطل بالاتفاق[1].

المقدمة الثالثة: إذا اقتنيت كتابًا في التفسير فاحرص على قراءة مقدِّمته، إن وجدت فيه، واعتن بها وتفهم مضمونها؛ فإنها تفيدك كثيرًا، لاسيما إذا كانت المقدمة من وضع المؤلف نفسه، فغالبًا ما تشتمل على التعريف بالكتاب وبطريقة التفسير ومنهج المفسر وذكر المصادر والمصطلحات التي اعتمدها في تحرير كتابه وما إلى ذلك من الفوائد. علما أن بعض هذه المقدِّمات حوت على نفائس وعلوم لم توجد في كتب علوم القرآن. انظر على سبيل المثال: مقدِّمة ابن جزي في تفسيره المسمى «التسهيل لعلوم التنزيل». ومقدِّمة الطاهر ابن عاشور في تفسيره «التحرير والتنوير»، ومقدمة جمال الدين القاسمي في تفسيره المسمى «محاسن التأويل»، وغيرها. كثير...

المقدمة الرابعة: إن تذوق معاني القرآن الكريم يقتضي تتبع الآية في أكثر من تفسير بدءا باستيعاب كلام المتقدمين وانتهاء بما أضافه المتأخرون من تهذيب وتحرير وإعادة ترتيب وتصنيف وتثوير[2]. ذلك أن الأمة قد تراكم لديها كم هائل من الفهوم السليمة والسقيمة، والأقوال السديدة والضعيفة، وهي اليوم بحاجة إلى عودة صادقة، يتأسس فيها اجتهاد الخلف على استيعاب جهود السلف، ويتجدد فيها التدين بناء على تجدد فهم الدين. وتبعا لذلك فلا مانع من أن يعقب اللاحق على السابق بأسلوب لطيف وأدب رفيع، مثال ذلك تعقيب الألوسي على قول الواقدي (ت: 402) عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا**

[1]– التبيان في تفسير القرآن للطوسي (ت 460 هـ).

[2]– قال ابن مسعود رضي الله عنه: (من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين).

يُومِنُونَ ﴿٨٧﴾[1]. «إن القلة تقتضي العدم؛ أي لا قليلاً ولا كثيرًا. فعقب عليه بقوله: «ويمكن أن يقال: إن ذلك على طريق الكناية؛ فإن قلة الشيء تستتبع عدمه في أكثر الأوقات لا على أن لفظ القلة مستعمل بمعنى العدم، **فإنه هنا قول بارد جدا ولو أوقد عليه الواقدي ألف سنة»**[2].

ومثال ذلك أيضا ما قاله الطبريسي مادحا ومعقبا على تفسير الطوسي- وهما معا من أهل الشيعة – (قد تضمن من المعاني الأسرار البديعة، واحتضن من الألفاظ اللغة الوسيعة، و لم يقنع بتدوينها دون تبيينها، ولا بتنميقها دون تحقيقها، وهو القدوة أستضيء بأنواره، وأطأ مواقع آثاره، **غير أنه خلط في أشياء مما ذكره في الإعراب والنحو الغث بالسمين، والخاثر بالزباد، ولم يميز بين الصلاح مما ذكره فيه والفساد، وأدى الألفاظ في مواضع من متضمناته قاصرة عن المراد، وأخل بحسن الترتيب، وجودة التهذيب، فلم يقع لذلك من القلوب السليمة الموقع المرضي، ولم يعل من الخواطر الكريمة المكان العلي**[3].

المقدمة الخامسة: مراعاة الجمع بين المدارسة والممارسة في التعامل مع العلوم الشرعية عامة وعلم التفسير خاصة. ذلك أن العلوم الشرعية ليست فلسفة وعلوما فلسفية، وإن كانت الفلسفة نفسها اليوم بدأت تبحث وتجد لنفسها مسالك ومجالات عملية تطبيقية. بل هي بطبيعتها ومن مبادئها جامعة بين النظر والتطبيق، بين القول والعمل، بين المدارسة والممارسة. فقد أنزل الله تعالى (اقرأ) متبوعة بـــ(قم الليل..) و(قم فأنذر...). لذلك قد آن الأوان أن نعيد التوازن بين العلم والعمل في التعامل مع العلوم الشرعية، ونعيد الاعتبار للممارسة والتطبيق. من خلال الاهتمام المستمر بقضية التطبيق وامتداداتها في الحياة الفردية والجماعية، داخل الحصص النظرية

---

[1]- سورة البقرة: 88.

[2]- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للآلوسي (ت 1270هــ).

[3]- مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي. (ت 548هــ). مقدمة التفسير.

التعليمية وخارجها. وصرف المضامين التدريسية والبحثية والتأليفية – قدر الإمكان – إلى معالجة مشكلات الواقع وقضاياه، مع الحرص على انتقاء واستدعاء الأمثلة التوضيحية للمسائل الفقهية والأصولية والعقدية والتربوية والتفسيرية من الواقع المعيش بدل الانحباس في أمثلة التاريخ البائد أو الاستدلال بالمثل الخيالية والافتراضية. وفي هذا السياق يقول الإمام الشاطبي: "كل مسألة لا ينبني عليها عمل فالخوض فيها خوض فيما لم يدل دليل على استحسانه، وأعني بالعمل: عمل القلب وعمل الجوارح من حيث هو مطلوب شرعا". ثم يقول في موضع آخر: "روح العلم هو العمل وإلا فالعلم عارية وغير منتفع به" وينقل عن سفيان الثوري قوله: "العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل". يعني لم يبق علما، بل يصير وهما وجهلا وجدلا[1]. لذلك ينبغي مراعاة المنهج العملي وتجنب المنهج الجدلي في التعامل مع التفاسير. وهو منهج اصطلح على تسميته الدكتور أحمد الريسوني منهج خلق القرآن عوض منهج خلق القرآن (الخاء الأولى بالضم والثانية بالفتح). وهو منهج مستوحى من جواب عائشة رضي الله عنها حينما سئلت عن خلق رسول الله، قالت كان خُلقه القرآن، إنه المنهج النبوي في التعامل مع القرآن، منهج التخلق بأخلاق القرآن. وليس منهج المتكلمين القائم على (قضية خَلق القرآن)، التي تصارع الناس حولها طويلا وعانى العلماء بسببها كثيرا، وكانت محنة وفتنة في تاريخ المسلمين العلمي والثقافي. وهي قضية لا قيمة لها في الدين، ولا وجود لها إلا في أذهان الذين غرقوا في مختبرات الجدل وسيطرت عليهم عقلية خَلْقِ القرآن بدلا عن عقلية خُلقُ القرآن. ولذلك نجد المقولة التي يقولها علماؤنا منذ القديم "العلم إمام العمل" إذ العلم والعمل متلازمان. مع الأسبقية للعلم، "فالعلم إمام العمل، وليس هناك علم لا يؤم عملا ولا يقود عملا"[2].

المقدمة السادسة: إن أحوال أكثر المسلمين في تعاملهم مع القرآن تعتريها أنواع الالتباس والخلط والغموض والإهمال والجهل والتفريط في كل مجالات التلاقي

[1]- الموافقات للشاطبي. المقدمة الخامسة. 42/1.

[2]- مقال منشور على الشابكة في موقع الألوكة للدكتور أحمد الريسوني.

والتعامل مع القرآن ابتداء من مراحل التلقي والتحفيظ، ومرورا بإعمال القرآن في أغراض لم يترل من أجلها أساسا، وانتهاء بالدوران بالقرآن في الآفاق الهامشية التي ما عرفها خير القرون، ولا اعتمدتها السياسات الرشيدة، ولا تحررت بها العقول، ولا اعتزت بها أمة القرآن يوما[1] وما أصدق الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله حين قال: (**مصيبة هذا الدين في جميع عصوره بفئتين: فئة أساءت فهمه، وفئة أتقنت استغلاله، تلك ضللت المؤمنين به، وهذه أعطت الجاحدين حجة عليه**)[2].

المقدمة السابعة: إن واجب النصح في الدين والتنبيه إلى ما يغفل عنه المسلمون مما يحسبونه هينا وهو عند الله عظيم يقتضي التنبيه إلى خطر أمر تفسير الكتاب والقول فيه دون مستند من نقل صحيح أو من دليل عقلي صريح.

فقد رأينا من الناس من يضع الآية ثم يركض في أساليب المقالات تاركا معنى الآية جانبا، جالبا من معاني الدعوة والموعظة ما كان جالبا، وقد دلت شواهد الحال على ضعف كفاية البعض لهذا العمل العلمي الجليل فيجب على العاقل أن يعرف قدره، وأن لا يتعدى طوره، وأن يرد الأشياء إلى أربابها، كي لا يختلط الخاثر بالزباد، ولا يكون في حالك سواد، وإن سكوت العلماء على ذلك زيادة في الورطة، وإفحاش لأهل هذه الغلطة، فمن يركب متن عمياء، ويخبط خبط عشواء، فحق على أساطين العلم تقويم اعوجاجه، وتمييز حلوه من أجاجه، تحذيرا للمطالع، وتتريلا في البرج والطالع [3].

المقدمة الثامنة: لمعرفة مقدار اتصال ما تشتمل عليه التفاسير، بالغاية التي يرمي إليها المفسر، ومقدار ما أوفى به من المقصد، ومقدار ما تجاوزه، ثم ينعطف القول إلى التفرقة بين من يفسر القرآن بما يخرج عن الأغراض المرادة منه، وبين من يفصل معانيه

---

[1]- نفس المرجع: 36.

[2]- هكذا علمتني الحياة. الشيخ مصطفى السباعي. ص 182. المكتبة الإسلامية. ط 4. 1997.

[3]- مقدمة محقق التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.

تفصيلا، يتعين العلم بمقاصد القرآن إجمالا، ذلك أن القرآن أنزله الله تعالى كتابا لصلاح أمر الناس كافة رحمة لهم لتبليغهم مراد الله منهم قال الله تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾[1] فكان المقصد الأعلى منه صلاح الأحوال الفردية، والجماعية، والعمرانية. فالصلاح الفردي يعتمد تهذيب النفس وتزكيتها، ورأس الأمر فيه صلاح الاعتقاد لأن الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير، ثم صلاح السريرة الخاصة، وهي العبادات الظاهرة كالصلاة، والباطنة كالتخلق بترك الحسد والحقد والكبر. وأما الصلاح الجماعي فيحصل أولا من الصلاح الفردي إذ الأفراد أجزاء المجتمع، ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه، ومن شيء زائد على ذلك وهو ضبط تصرف الناس بعضهم مع بعض على وجه يعصمهم من مزاحمة الشهوات ومواثبة القوى النفسانية. وهذا هو علم المعاملات، ويعبر عنه عند الحكماء بالسياسة المدنية. وأما الصلاح العمراني فهو أوسع من ذلك إذ هو حفظ نظام العالم الإسلامي، وضبط تصرف الجماعات والأقاليم بعضهم مع بعض على وجه يحفظ مصالح الجميع، ورعي المصالح الكلية الإسلامية، وحفظ المصلحة الجامعة عند معارضة المصلحة القاصرة لها، ويسمى هذا بعلم العمران وعلم الاجتماع[2].

المقدمة التاسعة: اعلم أن طرائق المفسرين للقرآن لا تكاد تخرج عن ثلاث، إما الاقتصار على الظاهر من المعنى الأصلي للتركيب مع بيانه وإيضاحه وهذا هو الأصل. وإما استنباط معان من وراء الظاهر تقتضيها دلالة اللفظ أو المقام ولا يجافيها الاستعمال ولا مقصد القرآن، وتلك هي مستتبعات التراكيب وهي من خصائص اللغة العربية المبحوث فيها في علم البلاغة ككون التأكيد يدل على إنكار المخاطب

1- النحل: 89.

2- مقدمة محقق التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.

أو تردده، وكفحوى الخطاب ودلالة الإشارة واحتمال المجاز مع الحقيقة، وإما أن يجلب المسائل ويبسطها لمناسبة بينها وبين المعنى، أو لأن زيادة فهم المعنى متوقفة عليها، أو للتوفيق بين المعنى القرآني وبين بعض العلوم مما له تعلق بمقصد من مقاصد التشريع لزيادة تنبيه إليه، أو لرد مطاعن من يزعم أنه ينافيه لا على أنها مما هو مراد الله من تلك الآية بل لقصد التوسع.

المقدمة العاشرة: التفاسير، وإن كانت كثيرة، فإنك لا تجد الكثير منها إلا عالة على كلام سابق بحيث لا حظ لمؤلفه إلا الجمع على تفاوت بين اختصار وتطويل. وإن أهم التفاسير تفسير "الكشاف للزمخشري" و"المحرر الوجيز" لابن عطية و"مفاتيح الغيب" لفخر الدين الرازي، "وتفسير البيضاوي" الملخص من "الكشاف" ومن "مفاتيح الغيب" بتحقيق بديع، و"تفسير الشهاب الآلوسي"، وما كتبه الطيبي والقزويني والقطب والتفتزاني على "الكشاف"، وما كتبه الخفاجي على "تفسير البيضاوي"، و"تفسير أبي السعود"، و"تفسير القرطبي" والموجود من "تفسير الشيخ محمد بن عرفة التونسي" من تقييد تلميذه الأبي وهو بكونه تعليقا على "تفسير ابن عطية" أشبه منه بالتفسير لذلك لا يأتي على جميع آي القرآن و"تفاسير الأحكام"، و"تفسير الإمام محمد بن جرير الطبري"، وكتاب "درة التتريل" المنسوب لفخر الدين الرازي، وربما ينسب للراغب الأصفهاني [1].

تلكم جملة من التنبيهات العلمية والمحددات المنهجية التي قد تعين طالب العلم في دراسته لعلم التفسير، وتعصمه من الوقوع في الآفات العلمية والمنهجية التي تحول دون إنتاج وتطوير البحث العلمي الجاد.

فما مفهوم علم التفسير؟ وما نشأته ومراحله؟ وما أصوله ومصادره ومقاصده؟ هذه الأسئلة وغيرها، إضافة إلى نماذج تطبيقية، هي مدار البحث في هذا الكتاب

[1]- مقدمة التحرير التنوير.

الذي وسمته ب **مقدمات في علم التفسير: مباحث نظرية ونماذج تطبيقية** وهو كتاب موجه بالأصالة لطلبة الفصل الرابع من شعبة الدراسات الإسلامية بكلية الآداب ظهر المهراز بفاس.

والحمد لله الموفق للصواب والهادي إلى سبيل الرشاد.

□

علم التفسير: المفهوم والمصطلح

مما لاشك فيه أن الحديث عن علم التفسير، يقتضي وجوبا تحديد ما يسمى باسمه ويدخل في مكوناته، ويميزه عن غيره مما له صلة به بوجه من الوجوه. وتحقيق ذلك مشروط ببيان مفهومه، واستخلاص ضوابطه وشروطه، ليمتاز بذاته عن سواه.

ثم إن تحديد مفهوم علم التفسير يقتضي النظر إليه من جهتين اثنتين، جريا على عادة العلماء والباحثين في تعريف الضمائم والمركبات الإضافية: جهة إفرادية وأخرى تركيبية. **أي تعريف العلم وتعريف التفسير**، إذ لكل منهما حقيقته التي تستوجب النظر فيه. **ثم تعريف الضميمة المؤلفة من المصطلحين**. تعريفا لقبيا، اعتبارا بكون المصطلحين المذكورين يفيدان عند تركيبهما معنى جديدا، وحقيقة مفهومية مستقلة. فما حقيقة علم تفسير النص القرآني ؟ وما علاقة مفهومه بغيره مما يرتبط به إئتلافا أو اختلافا؟. بيان ذلك نعرض له على وفق الخطة المنهجية الآتية:

أولا: مفهوم العلم.

ثانيا: مفهوم التفسير.

ثالثا: مفهوم علم التفسير

أولا – مفهوم العلم لغة واصطلاحا

أ - تعريف العلم في اللغة:

العلم لغة كلمة مشتقة من الفعل عَلِمَ أي أدركَ، والعلم عكسه الجهل، وقال علماء اللغة عن العلْم أنه الدلالة والإشارة والعلامة، والعلم يأتي بمعنى الشعور ويأتي بمعنى الأثر الذي يستدل به، فهو الحقيقة والنور. كما قال عنه الفيروز آبادي بأنه هو حق المعرفة، فالمعرفة تختلف عن العلم كونها تهتم بموضوع ما بشكل عام، وأمّا العلم فيهتم بالموضوع بجوهره ومضمونه والإحاطة به من كل الجوانب [1].

ب - تعريف العلم في الاصطلاح:

العِلْم في الاصطلاح له معان كثيرة نذكر منها ما يلي:

العلم هو الإدراك، ويتم ذلك بالاكتساب، فهو لا يولد مع الإنسان وإنما يكتسبه من خلال الإدراك، فإدراك الشيء هو الإحاطة بكل ما يخصّ هذا الشيء، فظهرت علوم عديدة منها علم الرياضيات، وعلم العلوم مثل الفيزياء، والكيمياء والأحياء، وعلم الجغرافيا، والفلك، والبحار، والنباتات، وغيرها من العلوم الأخرى التي لا تعد ولا تحصى، والشخص الذي يختص بعلم ما ويبرع فيه في كافة مجالاته هو عالِم.

ويطلق العلم على مجموعة المفاهيم المترابطة والمتناسقة التي يعتمد عليها في المناهج العلمية.

ج – تعريف العلم في القرآن الكريم

أما لفظ (العلم)، فقد ورد في القرآن الكريم بصيغ التنكير (علم) والتعريف (العلم)، ومضافا إلى الله –عز وجل–(علمه)، أو إلى غيره، خمسا ومائة مرة.

---

[1]– القاموس المحيط للفيروزابادي. لمن أراد التفصيل في الموضوع يرجع لكتاب مفهوم العلم في القرآن الكريم والحديث الشريف للدكتور مصطفى فوضيل.

والملاحظ أن صيغة التعريف يأتي اللفظ فيها دالا على العلم الحقيقي الذي شرف الله بعض عباده به فوصفهم بالرسوخ فيه وهم الذين جمعوا بين العلم والإيمان والعمل: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُومِنُونَ يُومِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾[1]، ووصفهم بقوله (أولوا العلم): أي هم أهله وخاصته، وشرفهم بجمع شهادتهم مع شهادته وشهادة ملائكته: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَاۢ بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨﴾[2]، ووصفهم بأنهم (أوتوا العلم) من لدن الله -عز وجل- طبعا، على أن كثيرا من الموارد جاء فيها لفظ العلم معرفا في سياق ذكر الاختلاف، والفرقة بعد مجيء العلم: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْياَۢ بَيْنَهُمْ﴾[3]، والمقصود بالعلم هنا النبوة والرسالة. أما الصيغ التي يأتي فيها اللفظ نكرة، فالعلم فيها هو مجرد معرفة قد تكون حقيقة وقد تكون ظنا (أو وهما) ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ اِلَّا اَتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾[4]، وقد تكون صحيحة وقد لا تكون ﴿وَإِنَّ كَثِيراً لَّيَضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[5].

ثانيا : مفهوم التفسير لغة واصطلاحا:

أ - تعريف التفسير في اللغة:

اتفق أهل اللغة على أن التفسير يعني الكشف والبيان والإيضاح، وإن اختلفت عباراتهم وألفاظهم. قال ابن فارس في مقاييس اللغة: (الفاء والسين والراء كلمة

---

[1]- سورة النساء: 161.

[2]- سورة آل عمران: 18.

[3]- سورة الشورى: 12.

[4]- سورة النساء: 156.

[5]- سورة الأنعام: 120.

واحدة تدل على بيان شيء وإيضاحه)[1]. وفي لسان العرب: وفسره أي أبانه. وقال ابن دريد: التفسير مأخوذ من قولهم فسرت الحديث أفسره فسرا، إذا بينته وأوضحته، وفسرته تفسيرا كذلك. والتفسير بهذا المعنى ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَاتُونَكَ بِمَثَلٍ اِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴿٣٣﴾﴾[2] أي وأحسن بيانا وتفصيلا. قال مجاهد في تفسير هذه الآية وأحسن تفسيرا: بيانا[3].

لكن أهل اللغة مع اتفاقهم في معنى التفسير قد اختلفوا في أصل اشتقاقه.

* فذهب البعض إلى أنه مأخوذ من **التفسرة**، وهو نظر الطبيب في بول المريض لمعرفة علته. قالوا: كذلك ينظر في الآية لاستخراج حكمها ومعناها، وممن اختار هذا القول **الزركشي في البرهان**.

* وذهب البعض إلى أنه تفعيل من **الفسر** الذي هو البيان والكشف، وممن اختار هذا القول **ابن فارس والأزهري. والجوهري وابن منظور والفيروز آبادي والسيوطي**.

* وذهب البعض إلى أنه مأخوذ من **مقلوب لفظه**، يقال سفرت المرأة سفورا، إذا ألقت خمارها عن وجهها، وهي سافرة، وأسفر الصبح: أضاء، وإنما بنوه على التفعيل لأنه للتكثير كقوله تعالى: (يذبحون أبناءهم)، فكأنه يتبع سورة بعد سورة، وآية بعد أخرى. وقد ضعف هذا القول قوم، منهم **الألوسي في تفسيره**، حيث قال: "(والقول بأنه مقلوب السفر مما لا يسفر له وجه)[4]. غير أن **الراغب الأصفهاني** لا يرى ذلك، بل حمل كلا منهما على معنى مع تقاربها، فجعل السفر لما هو محسوس

---

[1]- معجم مقاييس اللغة: مادة فسر.

[2]- سورة الفرقان: 33.

[3]- لسان العرب لابن منظور. حرف الراء.

[4]- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للآلوسي (ت 1270هـ).

ظاهر، وجعل الفسر للمعاني المعقولة، قال رحمه الله: (**والفسر والسفر يتقارب معناهما كتقارب لفظيهما، لكن جعل الفسر لإظهار المعنى المعقول، وجعل السفر لإبراز الأعيان للأبصار، فقيل سفرت المرأة عن وجهها وأسفر الصبح**)[1]. وغلبة الاستعمال تدل على صحة هذا التمييز. لأن التفسير يستعمل لغة في الكشف الحسي، كما يستعمل في الكشف عن المعاني، واستعماله في الأخير أكثر من استعماله في الأول. ومعلوم أن القرآن **ينبغي** أن يحمل على المعهود من كلام العرب.

ب - التفسير في الاصطلاح:

تعددت تعريفات العلماء للتفسير، واختلفت صيغها ومدلولاتها، وتباينت محتوياتها، اتساعا واختصارا، فدخل في مفهومه بسبب ذلك ما ليس منه، وخرج عن حقيقته ما هو منه. وبيان ذلك من خلال النماذج الآتية:

- تعريف **ابن جزي الغرناطي:** التفسير شرح القرآن وبيان معناه، والإفصاح بما يقتضيه بنصه أو إشارته أو فحواه[2].

-تعريف **أبي حيان الأندلسي:** التفسير علم يبحث فيه عن **كيفية النطق** بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حال التركيب وتتمات لذلك. [3]

- تعريف **الزركشي:** هو علم نزول الآية، وسورها، وناسخها ومنسوخها، وأقاصيصها، والإشارات النازلة فيها، ثم ترتيب مكيها ومدنيها ومحكمها ومتشابهها وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفسرها [4].

---

[1]- معجم مفردات القرآن الكريم للراغب الأصفهاني.

[2]- التسهيل لعلوم التنزيل: 6/1.

[3]- البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي: 26/1.

[4]- البرهان في علوم القرآن: 13/1.

- تعريف **الكافيجي**: أما التفسير في العرف فهو كشف معاني القرآن وبيان المراد، والمراد من معاني القرآن أعم سواء كانت معاني لغوية أو شرعية، وسواء كانت بالوضع، أو بمعونة المقام وسوق الكلام وبقرائن الأحوال[1].

- تعريف **عبد العظيم الزرقاني**: علم يبحث فيه عن معاني القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله بقدر الطاقة البشرية[2] .

ومما يمكن أن يلاحظ على هذه التعريفات إجمالا ما يلي:

* أن بعضها أغرق في ذكر التفاصيل والجزئيات التي يمكن الاستغناء عنها بعبارات جامعة، كما فعل الزركشي مثلا. ذلك أن تناوله بعض الجزئيات والعلوم على سبيل الحصر يقتضي الإتيان بجزئيات أخرى، وعلوم أخرى لها تعلق بالتفسير بوجه من الوجوه.

* أن بعض هذه الجزئيات التي أغرق بذكرها بعض المعرفين ليس لها علاقة بالتفسير، ولا فائدة في بيان المعنى واستفادته في الغالب، ومن ذلك مثلا: قول أبي حيان: التفسير علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن". ومعلوم أن العلم المختص بكيفية النطق بألفاظ القرآن هو علم القراءات لا علم التفسير، ولا يدخل منها في التفسير إلا ماله صلة ببيان المعنى أو الحكم، وهو المدلول المرتبط باللفظ لا بطريقة نطقه، ومن ذلك مثلا تعدد القراءات في الموضع الواحد حيث يحمل على تعدد المعنى، أو يجعل بعضه تفسيرا لبعض وبيانا له.

قال **الشيخ مناع القطان:** وتشترك التعريفات السابقة في أنها تتناول تفصيلات وأحكاما جزئية مما هو خارج عن الماهية، فليست حدا للتفسير، وغاية ما يقال فيها إنها تعاريف بالرسم[3].

---

[1]- التيسير في قواعد التفسير: 124-125.

[2]- مناهل العرفان في علوم القرآن.

[3]- مباحث في علوم القرآن.

* أن بعض التعريفات اشتملت على بعض العلوم في ثناياها دون ضابط معلوم يحدد ما يدخل منها ومالا يدخل في التفسير، ومن تلك العلوم مثلا علم الأحكام (أي علم الفقه) والحقيقة أنه ليس كل ما ذكر منه في كتب التفسير داخلا في مصطلح التفسير، لأن بعض المفسرين يتوسعون في ذكر المسائل المتعلقة بموضوع الحكم الشرعي الذي نصت عليه الآية، وهذا التوسع محله كتب الفقه لا كتب التفسير. ولذلك قيل عن تفسير فخر الدين الرازي: **"تفسير الرازي فيه كل شيء إلا التفسير"**.

وبالمقابل يلاحظ المتتبع لهذه التعاريف أنها اشتركت في أمور وقع الإجماع منهم، أومن أغلبهم على أنها من التفسير وتدخل في تحديد مفهومه ومنها:

* اتفاق عباراتهم على أن التفسير شرح للقرآن وبيان لدلالاته ومعانيه، وإفصاح بما تقتضيه ألفاظه، وهو قدر في الحقيقة لا ينازع فيه أحد، إنما النزاع فيما بقي أله علاقة أم لا؟

* ذهب أغلب المعرفين إلى أن التفسير علم من العلوم الشرعية، وذلك واضح بين من التعاريف المذكورة.

وقد اعتبر الدكتور خالد بن عثمان السبت تعريف الزرقاني- **هو علم يبحث فيه عن معاني القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله بقدر الطاقة البشرية- أجود تلك التعاريف.** لأنه تعريف يجمع القدر المتفق عليه بين كل المعرفين للتفسير، مضافا إليه ما هو ألصق بهذا العلم وأوضح في الدلالة على المراد منه. فهو شامل لكل ما يتوقف عليه فهم المعنى وبيان المراد[1].

[1]- قواعد التفسير. جمعا ودراسة: 29/1.

ج – تعريف التفسير في القرآن الكريم:

إن انتشار اصطلاح أو تسمية ما لعلم من العلوم، لا يعني بالضرورة مناسبة تلك التسمية لمضمون ذلك العلم وموضوعه ومقاصده، فقد تستقر بعض الاصطلاحات وتستمر بسبب مراعاة العلماء للاستعمال المتكرر لها، وبسبب سلطة الانتشار والذيوع بين الناس، أو لمجرد عدم رغبتهم في تغييرها أو نحت غيرها، فإن لكل جديد دهشة، كما يقال. لكن حين تدعو الحاجة العلمية والحضارية إلى التجديد في علم ما، أو إعادة بنائه، أو استكماله. وحين تفرض سنة التطور في العلوم القيام بمراجعات لبعض قضاياها ومسائلها، فإن ضبط الاصطلاحات والتسميات تصبح من الضرورات، وليس من قبيل الحاجيات أو التحسينيات، لأنه أمر نابع من رؤية تؤمن بالصلة العلمية بين الاسم والمسمى. فحين نتأمل التسميات والمصطلحات التي اتخذت علما على علم التفسير عبر التاريخ، نجدها مرتبطة برؤى ومرجعيات علمية معينة، حيث غلب عليها التوجه الأصولي أحيانا، والتوجه التفسيري حينا، ولم يغب عنها التوجه الكلامي في بعض الأحيان. لذلك نتساءل اليوم: هل يناسب حقا، تسمية هذا العلم الذي نروم اليوم البحث في أصوله وقواعده ومقاصده، أم أنه يحتاج إلى تسمية ومصطلح أكثر تعبيرا عن المقصود به، وأكثر ملاءمة لطبيعة موضوعه؟ وأكثر مناسبة لاستعمال القرآن الكريم؟. هذه الأسئلة وغيرها هي مدار بحثنا ومدارستنا في هذا السياق.

– التفسير في القرآن الكريم وما يأتلف معه من المصطلحات:

سبق أن أشرنا إلى أن مدار مادة التفسير في اللغة على معنى بيان الشيء وإيضاحه. وفي الاصطلاح **هو** توضيح معنى الآية بلفظ يدل على الشيء بلفظ ظاهر. وقد استعمل العلماء للدلالة على ذلك لفظ التأويل، ولفظ البيان أيضا. لكن حين نرجع إلى القرآن الكريم الذي هو موضوع هذا العلم نجد **أن مصطلح التفسير ورد بهذه** الصيغة مرة واحدة في آية واحدة. وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ**

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[1]، وقد حصر جل المفسرين دلالة لفظ التفسير فيها في معنى **البيان والتفصيل والظهور والكشف والإيضاح**[2] ، لكن سياق الآية وما دار فيها من ألفاظ ومصطلحات يضيف إلى هذا المعنى الكثير من التفصيل.

فالآية مكية – في سورة مكية – جاءت في ختام آيات تحكي ما يشبه "المناظرة" بين الرسول ﷺ والمشركين من قومه حاول فيها هؤلاء الطعن في صدق نبوته وحقيقة رسالته بمجموعة من "**الشبه الفاسدة**" فردها الله عز وجل عن رسوله **بأدلة ظاهرة بينة.**

والملاحظ أن أهم ما ميز ورود اللفظ في هذه الآية:

– أنه جاء **تمييزا** لما جاء به الله عز وجل من الحق ردا على شبهات المشركين الباطلة، ومنه يستفاد معنى الإيضاح والبيان، لأن التمييز من خصائصه: أنه مفسر ومبين لما يميزه.

– أنه جاء معطوفا على (**الحق**) الذي من معانيه القرآني: **إظهار الأدلة والآيات**، ومقابلا (**للمثل**) الذي جاء في الآية بمعنى **الأدلة والشبه الفاسدة**. كل هذا أفاد زيادة قيد في معنى التفسير، فهو بيان وإيضاح مع **دليل وبرهان**، يؤكد ذلك سباق الآية الذي ذكَر فيه الله عز وجل على التفصيل الشبه التي سماها "مثلا "والردود الدامغة عليها التي سماها حقا وأحسن تفسيرا، وجملة هذه الشبه: الطعن في مصدر الرسالة، ثم في صفات الرسول، ثم في صفات المرسِل عز وجل.

وكانت تلك الردود بمثابة الدليل القاطع والبرهان الكاشف **والبيان** الواضح لحقيقة الرسالة والرسول والمرسِل.

---

[1]– سورة الفرقان: 33.

[2]– ينظر مثلا تفسير كل من الطبري وابن عطية والبغوي وابن الجوزي والرازي والبيضاوي والقرطبي للآية.

والحاصل من ذلك أن التفسير في القرآن الكريم هو **بيان** مقرون بالأدلة والبراهين والحجج، **وإيضاح لحقائق الدين لا للألفاظ المعبرة عنها فقط.**

ولا يقوى سباق الآية وحدها، الذي يربط التفسير بالقرآن الكريم (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ **الْقُرْءَانُ** جُمْلَةً وَاحِدَة. ...) في معارضة سياق المقطع الطويل الذي وردت فيه، الدال على اتساع مفهوم التفسير ليشمل بيان الحقائق الدينية ومنها حقيقة القرآن الكريم، وعدم حصره في بيان ألفاظه ومعانيه فحسب. **ولذلك يبعد المجال المفهومي لاستعمال التفسير في القرآن الكريم عن المجال العلمي الذي استعمل فيه بالمعنى الاصطلاحي للعلم**[1].

أما المصطلحات التي تأتلف مع التفسير ضربا من الائتلاف فهي **التأويل والبيان.** وبيان ذلك في ما يلي:

- إن لفظ التأويل الذي ورد في القرآن الكريم في 17 موردا، لم يرد بمعنى من المعاني المتعلقة بمجال تفسير الألفاظ وبيان المعاني، بل ارتبط بمجال" التحقق الواقعي والفعلي لأمور علمية (قولية) وعملية (فعلية)، **وهو ما يجعل مصطلح التأويل، من منظور قرآني، غير مناسب لتسمية هذا العلم به.**

- ورغم أن مصدر" بيان" لم يرد إلا ثلاث مرات، من أصل 250 مرة من مشتقاته المختلفة، فإن العديد من الصيغ الفعلية والاسمية وردت في **علاقة مباشرة بالنص القرآني باعتباره دليلا تفصيليا** (بينّاه، تُبُيِّن، مبين، بيان...)، كما وردت صيغ كثيرة في علاقة مباشرة بالقرآن الكريم بوصفه دليلا (كليا) على صدق النبوة وحقائق الدين (البينات، تبيان، تبيين، المستبين، البينة).

- إن التأمل في المصطلحات الثلاثة (التفسير والتأويل والبيان) التي تتعاقب في الدلالة على مسمى *تفسير القرآن الكريم*، والمقارنة بينها، يمكننا من ملاحظة

---

[1]- علم أصول التفسير مصطلحا ومفهوما: الدكتورة فريدة زمرد.

"أهلية "مصطلح البيان ليكون الاسم الأنسب للعلم الذي يعنى بتفسير كلام الله عز وجل، وذلك للأسباب الآتية:

* علاقة البيان بالقرآن في القرآن.

من أهم خصائص "البيان" في القرآن الكريم ومميزاته أنه يأتي مسندا إلى الله عز وجل، **وصفة للقرآن الكريم**، فالله عز وجل هو من بيَّن الدين وحقائقه، على لسان رسله ومن خلال آياته التي ساق فيها الحجج على ذلك، ولذلك جعل القرآن بيانا "ثم إن علينا بيانه"، وهنا تلتقي في القرآن صفات التبيين والبيان والتبيُّن، فهو مبيِّن للحقائق الدينية تتضمن آياته دلائلها والبراهين على صدقها، وهو أيضا مُبيَّن، بعربية ألفاظه وأساليبه، ووضوح معانيه ودلالاته.

وإذا نظرنا في صفات القرآن الكريم التي وَصَف بها القرآنُ نفسه، نجد على رأسها **صفة البيان**، وهي صفة لازمت اسمي" القرآن "و"الكتاب" اللذين سمي بهما القرآن الكريم، وجاءت هذه الصفة تارة بصيغة المبالغة من اسم الفاعل "**مبين**"، وهي الأكثر، وتارة بصيغة المصدر "**بيان**"، كما وصفت آياته ب"البينات".

* الاستيعاب المفهومي لمعاني التفسير والتأويل:

البيان كما تبين اسم جامع **لكل ما يكشف عن المعنى**، ويزيل عنه غموض الإجمال، وبهذا المعنى يدخل تحته مفهوم التفسير بما هو إيضاح للألفاظ بأوضاعها اللغوية، وبيان للمعاني بسياقات ورودها المقامية، كما يدخل تحته التأويل بما هو بيان للمعنى غير الظاهر المراد من الخطاب. وبذلك لا يكون اختيار تسمية علم التفسير **بعلم البيان** خروجا عن مقتضى الدلالة الاصطلاحية للفظ، ما دام لفظ البيان متضمنا للفظ التفسير وزيادة.

ويمكن إيضاح هذا الاستيعاب من خلال تحليل أحد أقدم النصوص التي تحدثت عن أقسام التفسير

ومستوياته، وعلاقة هذه الأقسام بمفهوم البيان، وهو الأثر المروي عن ابن عباس رضي الله عنه (ت 68 هـــ)، قال: (التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله)[1].

فقد قسم الأثر التفسير إلى أربعة أقسام الجامع بينها مفهوم "البيان":

فالقسم الأول الذي يعلمه من كان عارفا بلغة العرب، هو من **المبيَّن الواضح من جهة اللغة**. والقسم الثاني الذي لا يعذر أحد بجهالته، والذي مثلوا له بالمعلوم من الدين بالضرورة كتوحيد الله عز وجل، هو من **المبيَّن من جهة الفطرة، وببيان الرسل** عليهم السلام، والقسم الثالث الذي تعرفه العلماء، هو **المبيَّن باجتهاد العلماء** في إزالة الإجمال والغموض والإشكال، بكل ما تتيحه القرائن وأحوال النصوص من إمكانات لذلك، وهو الدال في جزء منه على "البيان" الاصطلاح الأصولي المتأخر، أما القسم الرابع الذي لا يعلم حقيقته إلا الله، **فقد بين الله منه ما يسع الناس علمه، من العلم بمعناه**، وحجب منه ما لا يسعهم علمه من **معاينة حقيقته وكيفياته ووقوعه**، وهو ما **سيبينه** يوم القيامة. كل هذه الأقسام من التفسير إذن تنضوي تحت مفهوم البيان، كما أ نها تشير بشكل ضمني إلى أقسام البيان الثلاثة:

المبيِّنُ وهو المرسل للبيان، والمبيَّنً وهو المستقبِل للبيان، والبيان وهو الرسالة نفسها.

فالمبيِّنُ هو الله عز وجل، في حال بيان ما لا سبيل إلى إدراك حقيقته ووقوعه، وهو التأويل في اصطلاح القرآن الكريم، وبيان كل ما في الكتاب. وهو الرسول ﷺ في حال بيان ما أجمل في القرآن من أحكام مما لا سبيل إلى معرفته إلا من جهته ﷺ. وهو" التفسير و "البيان" في الاصطلاح الأصولي.

---

[1]– مقدمة تفسير الطبري: 70/1. تحقيق عبد الله عبد المحسن التركي. دار هجر للطباعة والنشر.

وهم العلماء المجتهدون، في حال بيان ما احتيج إلى اجتهاد، ومنه "التأويل" باصطلاح الأصوليين

والمبيَّنً، هو القرآن بمستوياته: مستوى الألفاظ والمفردات، ومستوى النصوص والتراكيب، ومستوى المعاني والأحكام، ومستوى الحقائق المغيبة.

أما **البيان،** فهو مضمون الرسالة، أي ما تضمنته تلك الألفاظ والنصوص والمعاني والأحكام والحقائق من **الهدى، والفرقان.**